المحاضرة الثالثة: الدولة المدرارية في المغرب الأقصى

1- عوامل نجاح ثورات الخوارج في المغرب الإسلامي: بالرغم من أنَّ المذهب الخارجي كان مشرقي النشأة إلَّا أنَّ مبادئ وآمال رجالاته تجسدت أيضًا في بلاد المغرب الإسلامي، وقد تمثل ذلك في قيام دولتين خارجيتين إحداهما صفرية المذهب اتخذت من سجلماسة بإقليم تافيلالت بالمغرب الأقصى عاصمةً لها ونقصد بها الدولة المدرارية، والثانية انتحلت الإباضية وجعلت من تيهرت بالمغرب الأوسط عاصمةً لها ونقصد بها الدَّولة الرستمية.

وقبل تأسيس الخوارج لهاتين الدَّولتين كان لهم نشاط كبير مهد لقيامهما، وقد ساعدت عدة عوامل في تحقيق ذلك أهمها:

- الدعاية المحكمة لنشر أفكار المذهب الخارجي من جهة، وضدَّ مذهب الخصوم من جهة أخرى.

- تهيئة الأرضية الفكرية لتقبل الفكر الخارجي عند الأمازيغ الذين وجدوا في أفكار الخوارج مخرجًا لهم خاصةً ما يتعلق بمبدأ جواز الخروج على السلطان الجائر بالسلاح، لأنَّه يسعى إلى الإطاحة بحكم الأمويّين ثمَّ العباسيّين من بعدهم بسبب ما ارتكبه بعض ولاتهم على المغرب من ظلم في حقهم.

-احتضان وإعجاب الأمازيغ بفكرة الحكم الشورى وعدم انحصاره في قريش ولا في بيت عربي آخر ما يعني أنَّ هذه الفكرة تفتح لهم بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم.

- التَّنظيم السري المحكم للدعوات الخارجية.

- استخدام السلاح في الوقت المناسب بعد التنظيم والدعاية والانتشار.

- ضعف الدولة الأموية في أواخر عهدها، والعباسية في بداية نشأتها وانشغالهما بالثورات التي حدثت في بلاد المشرق عن ما يحدث في بلاد المغرب.

- انفصال وانعزال الخوارج وبعدهم عن السلطة المركزية بالمشرق وعاصمة الولاة بالمغرب القيروان، حيث حول الخوارج نشاطهم إلى المغرب الأقصى والجزء الغربي من المغرب الأوسط، فمكنهم ذلك من تنظيم صفوفهم والقيام

بالثورة، ولم يمكن أعدائهم من القضاء عليهم بسبب البعد المكاني وصعوبة التدخل في الوقت المناسب.

وتجدر بنا الإشارة في هذا المقام إلى أنَّ الأمازيغ قبل اعتناقهم للمذهب الخارجي وإعلانهم الثورة ضدَّ سياسة الولاة الجائرة قاموا بتصرف حضاري يبين أنَّهم ليسوا من الذين يحبون إثارة الفوضى والاضطراب والثورة لأتفه الأسباب، حيث قاموا بإرسال وفد يتكون من حوالي عشرين رجلًا بقيادة ميسرة المطغري إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في دمشق لمطالبته بإصلاح الوضع في بلاد المغرب، ويخلصهم من ظلم الولاة، ولكنهم لم يتمكنوا من مقابلته إذ حال الأبرش وزيره بينهم وبينه، فعاد الوفد إلى المغرب وقد عزموا على الثورة بعدما يئسوا من الإصلاح بالطرق السلمية.

وقد شهد الطبري بأنَّ الأمازيغ كانوا يميلون إلى السلم بقوله "فمازال أهل المغرب من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك، أحسن أمة سلامًا وطاعةً، حتَّى دبَّ إليهم أهل العراق".

2- نسب الصُفرية:

الصُفرية نسبةً إلى زياد بن الأصفر وهو النسب الأكثر تدولًا لدى المؤرخين، وهناك من ينسبهم إلى أقدم أئمتهم عبد الله بن صفار، كما نسبوا إلى النعمان بن صفر، وهناك من يقول أنَّهم قوم أنهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم فقيل صفرية، وقيل بل هم الصِفرية لخلوهم من الدِّين فقد كان يقال لهم أنتم صِفر في الدِّين.

3- نشاط الصُفرية وقيام الدَّولة المدراريَّة: بدأ نشاط الخوارج الصفرية ببلاد المغرب في أوائل القرن الثاني للهجرة على يد دعاتهم الأوائل وعلى رأسهم عكرمة بن عبد الله مولى عبد الله بن عباس ذلك العالم التابعي المغربي الأصل الذي اعتنق المذهب الصُفري وقام بنشره في بلاد المغرب عن طريق اتصاله برؤساء القبائل الأمازيغية سواء عندما زار بلاد المغرب وبالتحديد القيروان أو حينما تقابل معهم في المدينة المنورة.

وشيئًا فشيئًا نمت حركة الخوارج الصفرية باعتناق بعض القبائل الأمازيغية لهذا المذهب وأعلنوا الثورة ضدَّ ولاة الأمويين للتَّخلص من سياستهم الجائرة

المتمثلة خاصةً في الجشع المادي، وكانت أولى ثورات الخوارج الخطيرة تلك الثورة التي قادها ميسرة المطغري زمن الوالي عُبيد الله بن الحبحاب سنة 122هـ/740م، حيث جهز جيش قوامه أربعين ألفًا من الصُفرية وخمسة وعشرون ألفًا من الإباضية واستولى على مدينة طنجة وطرد حاكمها عمر بن عبد الله المرادي، وبايع الخوارج بها قائدهم ميسرة بالخلافة، ولكنه أساء السيرة فيهم فثاروا عليه وقتلوه، ثمَّ بايعوا خالد بن حميد الزناتي وأخذوا يشنون الغارات في المغربين الأقصى والأوسط، ولمـَّا جاءت عساكر الوالي ابن الحبحاب لرد هجماتهم التقى الجمعان على ضفاف نهر الشلف وجرت معركة ضارية سميت بمعركة الأشراف سنة 122هـ/740م والتي انتهت بهزيمة جنود ابن الحبحاب. كما هزمت جيوش الخوارج أيضًا جنود الوالي كلثوم بن عياض القشيري في موقعة بقدورة على وادي سبو سنة 124هـ/742م، وفي نفس السنة هدَّد الصُفرية القيروان ولكن جموعهم انهزمت في معركتي القرن والأصنام أمام جنود الوالي حنظلة بن صفوان الكلبي. وفي سنة 132هـ/750م وقيل سنة 140هـ/757م اجتمع الصُفرية في مدينة مكناسة وبايعوا عيسى بن يزيد الأسود أمامًا لهم ولكنهم سرعان ما تنكروا له وقتلوه شر قتلة في سنة 155هـ/772م، وعينوا أبو القاسم المدراري خليفةً لهم فتوارث أولاده الحكم فيما بعد، وقد بلغ عددهم حوالي ثلاثة عشر أميرًا.

وقد اتخذ المدراريون من سجلماسة جنوب المغرب الأقصى عاصمةً لدولتهم، والتي استمرت قائمةً إلى أن ظهرت الدَّولة العُبيديَّة (الفاطميَّة) بالمغرب فأطاحت بها سنة 296هـ/909م لكن ما إن غادر العُبيديون سجلماسة حتى أعاد المدراريون إنشاء دولتهم من جديد، وأطاح بها الفاطميون مرةً أخرى سنة 347هـ/958م، فأعاد إحياءها ولدي الشاكر محمَّد بن الفتح، المنتصر بالله والمعتز بالله، حيث حكمها المنتصر بالله إلى غاية 352هـ/963م، ثمَّ المعتز بالله إلى غاية 366هـ/976م حيث زحف عليه أمير مغراوة الزناتية خزرون بن فلفول وقضى على دولتهم بصفة نهائية.

4- العلاقات الخارجية:

التقت أهداف الدَّولتين المدراريَّة والرستميَّة وتوطدت بينهما أواصر المودة والصداقة فأصحابها ينتميان إلى المذهب الخارجي، فالرستميون نظروا إلى سجلماسة على أنَّها منفذ هام للقوافل التِّجارية إلى بلاد السودان الغربي، وشعر

المدراريون بأهمية الرستميّين لهم إذ أنَّ توثيق الصِّلات بهم يعطيهم الأمان الذي يشعرون بالحاجة إليه كدولة صغيرة يتربص بها الأعداء خاصةً جيرانهم الأدارسة، وزاد التقارب بين الدَّولتين عندما حدثت المصاهرة بينهما حيث تزوج الأمير مدرار بن المنتصر بن اليسع من أروى بنت عبد الرَّحمان بن رستم، كما توطدت العلاقات الثقافية والتجارية بينهما.

وبالنِّسبة للعلاقات مع دولة الأدارسة فقد اتسمت بطابع العداء الذي اتخذ صورة تدبير المؤامرات أولًا ثم تحول إلى صراع عسكري أسفر عن توسع الأدارسة على حساب بني مدرار أخيرًا، ولم يكن الصراع نتيجة الاختلاف المذهبي بقدر ما كان نتيجة لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية، فسياسيًا كانت علاقة المدراريون جيدة مع أعداء الأدارسة البرغواطيِّين وبني رستم وبني أمية بالأندلس، كما أنَّ قيام دولة الأدارسة تمَّ على حساب الخوارج الصفرية، بالإضافة إلى أطماع الأدارسة في ذهب سجلماسة وفضة درعة. ورغم هذا العداء إلَّا أنَّ العلاقات تخللتها فترات من المسالمة وحسن الجوار كما كان هناك تبادل تجاري بين الدَّولتين، حيث كانت القوافل التِّجارية تروح جيئةً وذهابًا بينهما في آمان وسلام.

اتخذت علاقات بني مدرار مع العباسيِّين وأعوانهم الأغالبة طابع العداء بسبب الاختلاف المذهبي، وانفصال الدَّولة المدراريَّة عن الخلافة العباسيَّة، حقيقة أنَّ هذا العداء لم يصل إلى درجة قيام الحروب بينهما، فقد شغل كل منهم بمشاكله الذاتية عن مناجزة خصومه، وحالت الظروف السِّياسيَّة والعوامل الجغرافية دون تناحرهم، فالدَّولة الرستمية بالمغرب الأوسط كانت حائلًا جغرافيًا بين الأغالبة وبني مدرار منع من حدوث الاصطدام المباشر بينهما، كما آثر الأمراء المدراريون حياة الهدوء والموادعة داخل بلادهم النائية. واتخذت أيضًا العلاقات المدراريَّة العُبيديَّة (الفاطميَّة) طابع العداء الشديد، حيث أسقط العُبيديون الدولة المدرارية سنة 296هـ/909م. وبالنِّسبة لعلاقات بني مدرار والأمويِّين بالأندلس فلم يكن الاختلاف المذهبي والبعد الجغرافي حائلًا دون وجود صلات ودية بينهما، فقد جمعهما العداء المشترك للخلافة العباسيَّة والأغالبة والأدارسة، وسمح التقارب السِّياسي بينهما لوجود علاقات تجارية بحرية متينة تربط موانئ الأندلس في البحر

الرومي (البحر الأبيض المتوسط) بموانئ بني مدرار في بحر الظلمات (المحيط الأطلسي).